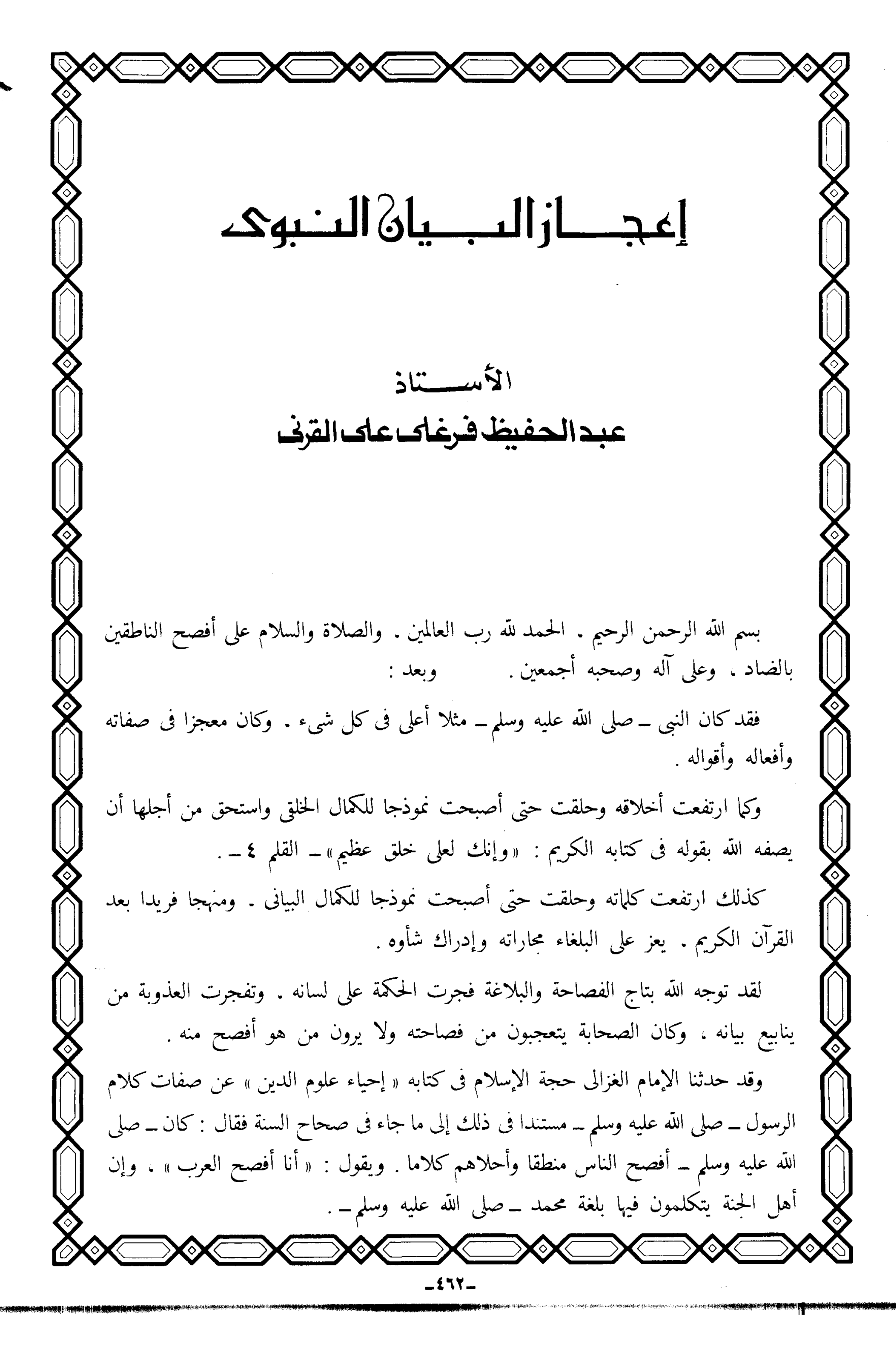


إعجاز البيان النبوى

الأستاذ
عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفصح الناطقين بالضاد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلا أعلى فى كل شيء . وكان معجزا فى صفاته وأفعاله وأقواله .

وكما ارتفعت أخلاقه وحلقت حتى أصبحت نموذجا للكمال الخلق واستحق من أجلها أن يصفه الله بقوله فى كتابه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » ـ القلم ٤ ـ .

كذلك ارتفعت كلماته وحلقت حتى أصبحت نموذجا للكمال البيانى . ومنهجا فريدا بعد القرآن الكريم . يعز على البلغاء مجاراته وإدراك شأوه .

لقد توجه الله بتاج الفصاحة والبلاغة فجرت الحكمة على لسانه . وتفجرت العذوبة من ينابيع بيانه ، وكان الصحابة يتعجبون من فصاحته ولا يرون من هو أفصح منه .

وقد حدثنا الإمام الغزالى حجة الإسلام فى كتابه « إحياء علوم الدين » عن صفات كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستندا فى ذلك إلى ما جاء فى صحاح السنة فقال : كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما . ويقول : « أنا أفصح العرب » ، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وكان نزر الكلام . سمح المقالة ، إذا نطق ليس بمهذار . وكان كلامه كخرزات نظمن . وعبارة أم معبد : كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضا .

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجزا فى بيانه ، وسأحاول ـ بتوفيق الله تعالى وحسن معونته ـ فى هذه السطور المتواضعة أن أقدم بعض نواحى الإعجاز البيانى فى كلام سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

البلاغة النبوية :

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرع من فروع الدوحة الهاشمية السامقة الذرا الثابتة الأصول . ولقد فاق هذا الفرع أصله الذى نما فيه حتى تشرف الأصل بفرعه الزاكى ، واعتزت الدوحة ببسقها الرفيع .

وقد اشتهر الهاشميون ببلاغتهم الفائقة وفصاحتهم النادرة . وقد عبر « الحصرى » فى كتابه « زهر الآداب » عن ذلك بقوله : لهم كلام يعرض فى حلى البيان وينقش فى فص الزمان ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر .

ما منهم إلا مُرَدًّى بالحجا أو مُبْشَرٌ بالأحوذية مؤدَم [1]

والهاشميون من قريش . وقريش من العرب . والعرب بصفة عامة لهم كلام يصفه : عتبة ابن أبى سفيان « بأنه أرق من الهواء وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق الهام من قسيها ، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت . وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت » [2] .

وقريش هى : التى اختار الله لغتها لينزل بها القرآن الكريم . وقد أحسن بعض العرب فى وصف فصاحة قريش فيما يرويه « الحريرى » فى كتابه : « درة الغواص فى أوهام الخواص » من أن « معاوية » قال يوما لجلسائه : من أفصح الناس ؟ .

فقام رجل من السماط فقال : قوم تباعدوا عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير .

---

(١) مردى بالحجا : اتخذ العقل رداء ـ الأحوذية : العقل ـ مبشر ومؤدم : بَشَرته وجلده محشوان بالحذق .

(٢) زهر الآداب جـ ٣ ص ٤٨ .

فقال «معاوية» : من أولئك ؟ . قال : قومك يا أمير المؤمنين . وعلق «الخفاجى» شارح «الدرة» على ذلك بقوله :

أجمع العلماء ورواة الأشعار على أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة لأن الله اختارهم من جميع العرب حيث اختار منهم نبي الرحمة وجعلهم سكان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته .

وقد فضل «الجاحظ» قريشا على سائر العرب وقال فى ذلك : فالعرب كالبدن وقريش روحها وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها . وموضع غاية الدين والدنيا منها .

وهاشم : ملح الأرض وزينة الدنيا وحيّ العالم والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف[1] .

ولقد توارث الهاشميون بلاغة العرب وقريش حتى ظهرت فى أروع صورها فى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبه ازداد القرشيون عامة والهاشميون خاصة جمالا على جمال فى حلاوة منطقهم وحسن كلامهم .

قيل لمسلم بن بلال العبدى : خطب جعفر بن سليمان خطبة لم ير أحسن منها . فلا يدرى أوجهه أحسن أم خطبته ؟ .

فقال : أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون . وبلسان النبوة ينطقون .

وسئل «سعيد بن المسيب» : من أبلغ الناس ؟ .
فقال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال السائل : إنما أعنى من دونه .
فقال : معاوية وابنه . وسعيد وابنه .
فقال رجل : فأين أنت من على وابنه ، وعباس وابنه ؟ .
فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكالهم وتدانت أحوالهم وكانوا كسهام الجعبة وبنو هاشم أعلام الأنام ، وحكام الإسلام .[2]

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح العرب بلا ريب .

ولقد بعثه الله تعالى فى تلك الأمة التى تعتز ببيانها وتباهى بفصاحتها . ولذلك كانت معجزته

---

(١) زهر الأداب جـ ١ ص ٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

لهم القرآن الكريم الذى تحداهم الله بأن يأتوا بآية من مثله فخروا أمام عظمته ساجدين .

ثم لم يكن من المعقول ـ كما يقول الأستاذ محمود مصطفى فى كتابه « الأدب العربى وتاريخه » جـ ١ ـ أن يجرى القرآن على لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بين القوم كأحدهم ، لا فضيلة له عليهم فى خاص كلامه ومعتاد حديثه ، وهو محتاج إلى التأثير وشدة الأخذ ودعوتهم إلى الدين ، وتأديبهم بأدبه ودفعهم لمحاربة أعدائه .

فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى هى بلاغة لسانه وقوة بيانه .

فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا على غير ما يعهد العرب من فصحائهم وما يألفون من مناطيقهم حتى لقد قال له أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ـ علمك ـ ؟

فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من عرف للكلمة مكانتها وهو الذى يقول : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » .

وكان يعجب بالشعر الجيد ويصغى إليه ويثيب عليه ، وما توسل إليه أحد ممن غضب عليهم لعداوتهم للإسلام ومهاجمتهم له بأفضل من الشعر ، ولذلك جعله أحد أسلحته التى أذل بها الكفار وأفحم شعراءهم .

وقد وصف البلغاء كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه النهاية فى البيان والغاية فى البرهان ، المشتمل على جوامع الكلم وبدائع الحكم .

وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى سعد بن بكر» .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس دون غيره من الأنبياء الذين آتاهم الله الحكمة وفصل الخطاب .

وقد أشار إلى ذلك «الجاحظ » « فى البيان والتبين» فقال : «وفى كتاب الله المنزل أن الله تبارك وتعالى جعل منيحة داود الحكمة وفصل الخطاب كما أعطاه إلانة الحديد » .

وفى الحديث المأثور أن رسول الله قال : « شعيب خطيب الأنبياء ، وعلم سليمان منطق الطير وكلام النمل ولغات الجن » .

فلم يكن الله ليعطى هؤلاء الأنبياء هذه الملكات ثم لا يكون سيد الأنبياء ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فوقهم منزلة فيها وقد نشأ فى بيئة سلاحها : الكلمة ، فلابد أن يفل سلاحهم بمثله ويقطع بيانهم بما هو أروع منه وأجود .

فكان القرآن وكان بيان من أنزل عليه بيانا للقرآن وتفصيلا له .

من وجوه الإعجاز فى البلاغة النبوية :

١ ـ مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال

عرف العلماء البلاغة بقولهم : هى فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته .

وفى المتكلم : ملكة فى النفس يقتدر بها على تأليف كلام بليغ فى أى معنى قصده ، فلو لم يكن ذا ملكة لم يكن بليغا ، وإذ طبق مفهوم البلاغة على أنواع الكلام البشرى جاء فى الذروة كلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى منزلة لا تدانيها منزلة من منازل البلغاء الناثرين على اختلاف أنواع النثر وفنونه .

وجاء فى كتاب « الصناعتين » : قال الحكماء : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون المتكلم أو الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه التصرف فى كل طبقة .

وقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كلامه كذلك وهو الذى يقول : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » . ولكل مقام مقال كما يقولون .

ومقامات القول التى دارت حولها حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حصرلها . وله فى كل مقام منها مقال بلغ القمة فى روعته ، ولم يقل أحد عنه إنه لو قال كذا بدل كذا لكان أجدر ، ولو ترك كذا لكان أفضل ، ولو زاد كذا لكان أشمل .

ولو شئت أن تتبع سيرته الطيبة المباركة وتتبع معها أقواله لظفرت بالبيان المعجز الذى لا يضارع ، وحسبى فى ذلك تقديم بعض الأمثلة لهذه الأقوال المعجزة فى مقاماتها المختلفة .

(أ) فى « سيرة ابن هشام » . حين اجتمع زعماء قريش حول أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من : شتم آبائنا وتسفية أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

حين قالوا له هذه المقالة بعث إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا : لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال : « يا عم والله لو وضعُوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك ما تركته » .

فقد رأيت أن المقام يقتضيه هذا الكلام الذى صدر من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة من ربه وشجاعة نادرة .

وما ظنك برجل بداله من عمه أنه قد تخلى عن نصرته فى تبليغ دعوته وقد عرض عليه القوم قبل ذلك أن يعطوه من الدنيا ما شاء على أن يكف عن هذه الدعوة .

والآن قد تهددوه بالحرب التى لا يستطيع عمه الصمود لها ، فقد وجد نفسه بين إغراء وإنذار ولكنه لم يلن لواحد منهما وقال قولته المشهورة التى حفظها التاريخ وشهد لها بأنها أبلغ ما قيل فى هذا المقام .

وقد كانت هذه الكلمة على صغرها أكبر تأثيرا فى نفس أبى طالب من حديث القوم كله وإرهابهم وترتب عليها فيما بعد ازدياد صلابة أبى طالب فى تأييده لابن أخيه وتوليه الرد القوى بنفسه على هؤلاء المعاندين .

(ب) وهذا مثال من خطبه التى كان يراعى فيها مقتضيات الأحوال ـ حين نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الصفا » ، وجعل ينادى بأعلى صوته . « يا معشر قريش يا بنى هاشم با بنى عبد المطلب » .

فلما اجتمعوا وفيهم أبو لهب قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا معشر قريش أرأيتم لو أنى أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد إن لم تؤمنوا بالله وحده وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، يا معشر قريش : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا معشر بنى هاشم : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله

شيئا . يا عباس بن عبد المطلب . يا صفية عمة رسول الله : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد : سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

والمقام هنا مقام إنذار وتبليغ للدعوة الإسلامية ، والمنادَوْن هم الأقربون من قومه ، والموقف يقتضى لباقة وحسن تلطف ومصارحة . فناداهم على درجاتهم ابتداء من القبيلة الأم ثم بنى هاشم الحلقة الوسطى ثم بنى عبد المطلب الأقرباء الأدنين . ثم مهد للخطاب بانتزاع الإقرار منهم بصدقه ثم أبلغهم ما جاء به . فلم يحر أحد منهم جوابا .

وقد وقع القول من نفوسهم كل موقع ما عدا أبا الهب الذى ملأ الشيطان نفسه إعراضا وتمردا فقال : تبالك ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى مدافعا عن نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تبت يدا أبى لهب وتب » ... ولقد ذهبت كلمة أبى لهب أدراج الرياح وبقيت كلمة الله بقاء الدهر يرددها المسلمون صباح مساء تشهد بجلال الحق وارتفاعه وسقوط الباطل واتضاعه .

(جـ) وفى كتبه التى أرسلها إلى الملوك والأمراء نماذج كاملة لمراعاة مقتضيات الأحوال . فرسالته إلى النجاشى تشير إلى ما يدين به النجاشى من دين وتخاطبه من هذا المنطلق الذى يؤمن به ويعتقده وفيها يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة .

السلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن .

وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه .

وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله » ـ

أخرجه البيهقى عن ابن اسحاق .

لقد كان النجاشى يميل إلى الإسلام ويعتقد برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لقد وكله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه فى خطبة السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان بعد تنصر زوجها وهلاكه ـ وكانا قد هاجرا إلى الحبشة ـ فخطبها له وأصدقها عنه .

فجاءت رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحمل روح الأخوة فى العقيدة . وقد بدأها

بتوجيه السلام إليه ولا يهدى السلام إلا لمؤمن ، وفيها بيان لعقيدة الإسلام بالنسبة لعيسى وأمه . وفيها ذلك الأنس الذى يشعر به الإنسان إذا خوطب ممن يميل إليه ويصطفيه .

ونلمس الفرق واضحا بين هذه الرسالة وبين رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهرقل وكان يدين أيضا بالمسيحية كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين . و «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

الرسالة تبدأ بتوجيه السلام إلى من اتبع الهدى فليس السلام موجها لشخصه إلا إذا كان متبعا للهدى .

ثم حمله المسئولية بالنسبة لشعبه فى تبليغ دعوة الإسلام إليهم فهو راعيهم وكل راع مسئول عن رعيته .

ثم دعاه إلى الاحتكام إلى الكلمة السواء التى دعا القرآن إليها أهل الكتاب .

موقف حاسم من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لهرقل ليس فيه ضعف وتخاذل .

وقد كان الروم يشعرون أن لهم على العرب سلطانا .

فى الرسالة إشعار لهرقل بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتكلم من فراغ ولكنه يتكلم باسم دين جعله الله خاتم الديانات وهو مع ذلك يحترم الدين السابق الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ فليرجع أهله إلى صميم هذا الدين وتعاليمه الصحيحة فسوف يجدون فيها جوهر الإسلام ولبه .

ومع أن كلا من النجاشى وهرقل يدينان بالمسيحية إلا أن الفرق واضح بين الخطابين المرسلين إليهما . فليس إيمان هرقل بالمسيحية كإيمان النجاشى بها .

فهرقل يدين بها وهى فى نظره تمكنه من الاستعلاء والبقاء فى الحكم والاستمرار فى السلطان ، وتمسكه بها تمسك بحقه فى الملك والسيطرة فهو إيمان مصلحة لا إيمان عقيدة . ولذلك فهو مقر بما تمده به سلطات الكنيسة من أفكار .

أما النجاشي فله فكره المستقل ولذلك لم يلبث أن قال لخصوم المسلمين من قريش حين أرادوا أن يفسدوا ما بينه وبين المسلمين عن طريق ما يقوله القرآن فى شأن عيسى ، قال لهم : إن هذا ويعنى ما سمعه من القرآن ـ والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ولقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رسالته للنجاشي مراعيا لمقام هذا الرجل الذى يميل بروحه إلى الإسلام فأكثر من أسماء الله الحسنى وأشار إلى المسيح وأمه إشارة ـ كما يقول العقاد فى كتابه « عبقرية محمد » ـ لم تُؤثر فى الكتب الأخرى ، ولكنها إشارة لازمة فى خطاب ملك مسيحى يراد أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه ، ودين المسلمين الذى يُدعى إليه .

وتتغير لهجة الرسالة إذا كانت مرسلة إلى ملك وثنى كرسالته المرسلة إلى كسرى .

فإننا نجد فيها كلمات دامغة وعبارات لها وقع الصاعقة على رجل كان يعتقد أن الأرض من حوله عبيد له .

وتلمس فى رسائله إلى الملوك خارج الجزيرة العربية السهولة فى اللفظ حتى لا يكاد يخفى منها شىء على من له أدنى معرفة بالعربية ، على حين أنه حين كتب إلى قوم من العرب فخم لفظه وأجزل أسلوبه لما عرف منهم من فضل قوتهم على فهمه ، وأنهم من عادتهم أن يقبلوا على مثل خطابه ، كما أنه كان يراعى لهجتهم ومعرفته بلغتهم .

كتب لوائل بن حجر الحضرمى ـ فيما يرويه أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » ـ يقول : « إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . على التبعة شاة . والتيمة لصاحبها . وفى السيوب الخمس . لاخلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى وكل مسكر حرام »[1] .

(د) ومن مراعاة مقتضيات الأحوال أن يطيل المتكلم فى مواقف ويقتصر فى مواقف على حسب الظروف والأحوال . ومن أمثلة تطويله خطبته فى : حجة الوداع .

وقد أوردها ابن هشام مختصرة وذكرها ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » مطولة ، والموقف هنا يستدعى التطويل لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أودع خطابه خلاصة دعوته ولأنه آخر خطاب عام موجه إلى أمته ، ولذلك قال فيه : « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » .

---

(١) الأقيال : الملوك ـ العباهلة : المقرون الثابتون فى ملكهم ـ التبعة : أربعون شاة ـ التيمة : الشاة الزائدة على الأربعين ـ السيوب : الركاز وقيل : هى المعادن ـ الخلاط : مصدر خالط ـ الوراط : الخديعة والغش ـ الشناق : ما بين الفريضتين ـ الشغار : نكاح فى الجاهلية أبطله الإسلام .

ومن أمثلة الإيجاز خطابه فى فتح مكة الذى قال فيه : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل : أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب . ثم تلا هذه الآية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ... الآية ـ

يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ـ ذكرها ابن هشام فى « سيرته » ـ المقام هنا لا يستدعى التطويل فقد فتح الله على المسلمين مكة التى طردوا منها وأصبح عليهم التأهب لحنين فهم مشغولون بذلك . وقد امتلأت قلوبهم بفرح النصر وأهل مكة فى ذهول لما أصابهم . والموقف موقف عمل لا كلام ، على أن هذه الكلمات القلائل فى هذا اليوم الحافل فيها جماع لكل ما يريد أن يقوله أى قائد منتصر ـ غير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صفحات ويستغرقه فى ساعات .

لقد تعود القادة فى العصور المتأخرة أن ينتهزوا الفرص ليستعرضوا على شعوبهم أقوالهم التى يعيدون فيها ويزيدون وقد لا تحتوى على معنى دقيق أو حكمة هادفة أو منهج قويم .

ولكن هذه الخطبة على إيجازها ومناسبتها للموقف حددت منهج الإسلام بالنسبة للجاهلية وعلاقته الجديدة مع أهل مكة الذين طالما ناصبوه العداء .

٢ ـ مطابقة بيانه للقرآن الكريم :

قال تعالى فى سورة النجم : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى» يشير ذلك إلى منطق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يستقى من منبع الوحى الكريم . كما يشير أيضا إلى أن السنة كالوحى المنزل فى العمل .

روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «ألا إنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ..» ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى فى سورة الحشر : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» .

هناك التقاء لا شك فيه بين معانى القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وقد جاءت السنة مفصلة للقرآن وموضحة له ، فأغراض الأحاديث الشريفة تدور فى أغراضها حول القرآن الكريم تبين مجمله وتفسر مشكله وتوضح أهدافه .

وقد تناولت مختلف أمور الدين والدنيا التى تهم المسلمين وتبنى لهم حياتهم على هدى من الله ونور .

فيها ما يتصل بالعبادات والمعاملات والجهاد ، وما يعالج النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفيها الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وهى فى كل ما تتناوله تأتى بالمنطق الفصل والحجة القوية والقول العذب والبيان المعجز الذى لا يمكن الإضافة إليه أو الحذف منه أو القياس عليه لأنه صادر من منبع المدد الإلهى والفيض الربانى والإلهام السماوى مصداقا لقول الحق : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

ومن أمثلة ذلك ـ وبيان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كله صالح للتمثيل ـ قوله فيما أخرجه ابن ماجة ورواه عن أبى الدرداء : « توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا . وصلوا الذى بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا الصدقة ترزقوا . وأمروا بالمعروف تخصبوا . وانهوا عن المنكر تنصروا .. إن أكيسكم أكثركم ذكرًا للموت وأكرمكم أكثركم استعداد له . ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور . والتأهب ليوم النشور» .

فالمعانى التى تدور حولها عبارات هذا الحديث الشريف هى : التوبة والعمل الصالح وتعمير القلب بذكر الله وخشيته والحث على الصدقة ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاستعداد للآخرة بالإكثار من ذكر الموت والزهد فى الدنيا . وعدم التمسك بزخارفها الزائلة وزينتها الباطلة .

أليس هذا هو ما يدعو إليه القرآن الكريم من مبادئ وما يحث عليه من صفات ؟

أليس ذلك يلتقى مع قول الحق فى وصف عباده المؤمنين فى آخر سورة الفرقان : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » .

وقس على ذلك كل ما ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجده لا يخرج فى مضمونه عما يدور حوله القرآن الكريم من معانى ومثل .

جاء فى كتاب « الأدب العربى وتاريخه » جـ ١ : « ولقد كان موضوع حديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشرف الموضوعات فهو بيان لأغراض القرآن وتفسير مشكله وإيضاح مبهمه وتخصيص مطلقه ، من كل ما يتعلق بأدب أو عبادة أو تعامل .

فالقرآن الكريم مثلا لم يبين تفاصيل الصلاة ولم يشرح كيفيتها . وحرم الخمر بقوله : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ولم يبين المراد من الخمر ولا مقدار ما يحرم منها . فكان على النبى كشف الغامض من كل ذلك » .

وكان ذلك فى أسلوب دقيق محكم معجز يتأبى على التقليد والمنافسة ، لأن ما استمد من الوحى كان خليقا أن يتناسب فى بلاغته مع هذا الوحى الذى استمد منه ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تستعصى على المستزيد .

٣ ـ براعته فى ضرب الأمثلة :

المثل : قول موجز سائر يشبه به حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله .

قال الأدباء : « والأمثال تصدر من وحى الفطرة السليمة ، والحس الصادق والتجربة الصائبة ، وهى ميزان تعرف به قيمة انتزاع العقول وإسعاف الخواطر والقدرة على الإفحام .

وللمثل أثره ـ كالحكمة ـ فى أنه يهب ما يقع فى تضاعيفه من الكلام رونقا ويفرغ عليه قبولا وحسنا . وناهيك من المثل ما يعطيك من بلاغ الحجة وانقطاع الخصم والاستغناء به على قلة ألفاظه عن بسط المعنى المتنازع عليه فيما تحكيه صورة المثل من رفعة أوضعة أو من مدح أوذم . فهو من مظاهر الإيجاز فى اللسان العربى » ـ « الأدب العربى » ص ٨٠ لمحمد هاشم عطية ـ .

هذا تعريف للمثل بصفة عامة وعند إطلاق كلمة المثل . وقد حفل الحديث الشريف بألوان منه فيها براعة وجمال مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «كل الصيد فى جوف الفرا» .

قال الميدانى فى « مجمع الأمثال » : وقد تألف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا المثل أبو سفيان حين استاذن عليه فحجبه قليلا ثم أذن له . فلما دخل قال أبو سفيان ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجهلتين (جانبى الوادى) فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنت كما قيل » : «كل الصيد فى جوف الفرا» . وهو مثل يضرب لمن يفضل على أقرانه .

وفى هذه الأمثلة يحذف المضرب ويبقى المورد اعتمادًا على ذكاء السامع وثقافته ، ولكن هناك أنواعا أخرى من الأمثال قائمة على التشبيه بين حالين يصرح بهما فى الكلام لتوضيح غامض أو إرعاء النظر إلى شىء . وإثارة الذهن له .

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله فى سورة العنكبوت : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

وقد أوضح الحكيم الترمذى فى كتابه « الأمثال من الكتاب والسنة » أثر الأمثال بقوله : « الأمثال مرآة النفس والأنوار مرآة القلب ، وإن الله تعالى جعل على الأفئدة أسماعا وأبصارا ، فما أدركت أسماع الرءوس وأبصارها أيقن به القلب واستقرت به النفس ، وما غاب عن أسماع الرءوس وأبصارها وجاءت أخبارها عن الله أيقن القلب بذلك ولكن تحيرت النفس وتذبذبت ... فإذا ضربت لها الأمثال صار ذلك الأمر لها بذلك المثل كالمعاينة كالذى ينظر فى المرآة فيبصرفيها وجهه ويبصر من خلفه ، لأن ذلك المثل قد عاينه ببصر الرأس فإذا عاين ذلك أدرك الذى غاب عنه فسكنت النفس وانقادت للقلب » .

فهذا أثر المثل ، ولذلك أكثر القرآن الكريم من استعمال الأمثال فى مواضع مختلفة ، واقتدى به النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاستعملها فى مناسبات شتى ، واليك بعض الأمثلة منها .

حدث سفيان قال : حدثنيه أبو الزعراء عمرو بن عمرو وسمعه ابن عمه أى الأحوص عن أبيه عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « أرأيت لو كان لك عبدان : أحدهما يكذبك ويخونك ولا يصدقك ، والآخر لا يكذبك ولا يخونك ويصدقك ، أيهما أحب إليك » ؟

قلت : الذى لا يكذبنى ولا يخوننى ويصدقنى . قال : « كذلك أنتم عبيد ربكم » ــ « الأمثال من القرآن والسنة ــ » .

والمثل واضح فى إعطاء العبرة المطلوبة ، فإن الإنسان يحب من عبيده وغلمانه الذين لا يسرقونه ولا يخونونه ولا يكذبون عليه ، بل هو يكرمهم ويكافؤهم ، والله فى علاه يحب من عباده المخلصين الصادقين الأمناء الأوفياء .

وهذا مثل أخر ذكره الترمذى أيضا : « مثلى فى الدعوة مثل سيد بنى دارا واتخذ مأدبة وبعث داعيا يدعو إلى مأدبته فى داره ، فالسيد هو الله تعالى والمأدبة الجنة والداعى أنا » .

« الأمثال للترمذى » .

ما أقرب هذا المثل وأيسره فى تصوير دعوة الإسلام إلى الهدى والنجاة ، وحب الله لعباده فى أن ينالوا جنته ورضاه .

وهذا مثل لقارئ القرآن : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » ـ « أخرجه مسلم والنسائى » .

وهو مثل واضح لا يحتاج إلى تعقيب ولكنه يدل على براعة كاملة فى إدراك أوجه المشابهة مما يترك أثره العميق فى نفس السامع وإقباله على ما يتضمنه من معانى ، وهذه أمثل طريقة فى التربية الحديثة التى تعنى فى إيصال ما يراد بوسائل الإيضاح المختلفة .

واقرأ هذا المثل الذى يوضح أثر الصلاة وجاء فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أرأيت لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون : هل يبقى من درنه شىء ؟ » .

قالوا : لا .

قال : « ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » .

وهذه كلها أمثلة تصويرية تعتمد على التشبيه .

ومن الأمثلة العملية التى تؤخذ من واقع الحياة ما أورده الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه « إنسانيات محمد » : مر رجل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لرجل جالس عنده : « ما رأيك فى هذا ؟ » فأجاب : إنه من أشراف الناس ، وإنه والله لحرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع ، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم مر رجل فقال الرسول : « ما رأيك فى هذا ؟ » فقال يا رسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال ألا يسمع .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

وفى هذا المثل توضيح لما تجره المظاهر من أخطار ، وقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الاغترار بالمظاهر والركون إليها دون العناية بالجوهر .

ومن الأمثلة العملية التى تضرب لوقائع الأحوال ما رواه كتاب « الأمثال » .

أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلا ينقر فى صلاته لا يتم ركوعه وسجوده فقال : « لو مات هذا مات على غير ملة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا صليتم فأتموا الركوع والسجود فإن مثل المصلى لا يتم ركوعه ولا سجوده كمثل الجائع الذى يأكل المرة والمرتين لا تغنيان عنه شيئا » .

والمقصود بالمرة والمرتين : اللقمة واللقمتين اللتين لا تغنيان عن الجائع شيئا . وتصوير المصلى الذى لا يتم الركوع والسجود بالجائع تصوير صائب فإن كليهما فى حاجة إلى القوة والغذاء اللذين يعينان على الحياة والمضى فيها ، وكما أن الجسم فى حاجة إلى غذاء يبنيه ويصححه ويكون ذلك بالطعام المناسب فى أوقاته المعلومة كذلك الروح فى حاجة إلى غذاء ينعشها ويقويها بالصلاة التامة فى ركوعها وسجودها .

وليس كل إنسان قادرا على ضرب الأمثلة ، وإنما هى فطنة ينبه الله إليها من يشاء من عباده وحكمة يهبها الله لأحبائه « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .
لقد عرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدر الأمثال وقيمتها فى توضيح الغامض وتقريب البعيد ، وتمثيل المعنوى فى صورة المحسوس المشاهد فلم يغفلها . وأكثر منها . وجاء فى كلامه الفصيح وأسلوبه الحكيم منها قدر نافع لمن يتدبر مفيد لمن يعتبر .

وله إلى جانب ذلك أمثلة سائرة ذائعة تشتهر بالإيجاز والطرافة منها ما أورده « العقد الفريد » وغيره مثل : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ـ « إياكم وخضراء الدمن » ـ « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

٤ ـ بداهته وقطع حجة خصمه :

من دلائل الإعجاز لدى المتحدث أنه يستطيع مجابهة الأحداث التى تعرض له بحديث فائق لم تغب عنه الفكرة الصائبة والمعنى الدقيق ولم يفته اللفظ المتخير والأسلوب المحكم والنسج المتين مهما طال .

ولم يجتمع ذلك كما اجتمع للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى توفرت له آلة البلاغة من جودة القريحة وطلاقة اللسان ورباطة الجأش.وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه ولا حول له فى اجتلابه .

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبده بالموقف فيتحدث فيه حديثا رائعا غير متكلف ولكنه معجز ، فى الوقت الذى يرتج فيه على كثير من أئمة البلاغة وأرباب البيان .

فقد حدثوا عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وعن معاوية وعن يزيد أخيه وعن غيرهم أنهم ارتج عليهم فى بعض مواقفهم ، كما حدثوا عن أبى على القالى « صاحب الأمالى » أنه لم يستطع أن يجابه الموقف حين طلب منه أن يرتجل خطبة فى حفل استقبال أقيم فى بلاط عبد الرحمن الناصر يستقبل فيه رسول ملك الروم .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتسم برباطة الجأش وسكون النفس وحضور الفكر وعصمه الله من الحيرة والدهش اللذين يعرضان لبعض الخطباء فيحصرون ويفقدون مقاليد الكلام وأزمة البيان .

والرسالة تحتاج إلى شرائط ، منها : التبليغ ولا يتم التبليغ إلا بالإجابة المسددة على ما يعترض الرسول من أسئلة ومحاورات ، وإليك هذا المثل الذى يدل على قوة حجته وحسن بيانه وإقناعه لخصمه دون أن يكون قد أعد لذلك بيانا مسبقا .

أخرج ابن خزيمة عن بن عمران بن حصين قال : إن قريشا جاءت إلى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقالوا : أوسعوا للشيخ ـ وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم .

فقال : « يا حصين ، كم تعبد من إله ؟ » قال : سبعة ستة فى الأرض ، وواحد فى السماء ، قال : « فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك » ؟ قال الذى فى السماء ؟ قال : « فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ » قال : وعلمت أنى لم أحكم مثله ، قال : « يا حصين أسلم تسلم » ، قال : إنى لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟ : قال : « قل اللهم استهديك لأرشد أمرى ، وزدنى علما ينفعنى . فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم .. « أسد الغابة ـ » « الرسول » لسعيد حوا ـ .

فانظر إلى هذه البداهة والإجابة المسددة وكيف كان لها أثرها فى هداية رجل كان من صناديد الكفر والشقاق ، ومن ذلك رده القاطع على زعماء قريش ـ فيما أخرجه ابن هشام فى سيرته ـ وقد بعثوا إليه ليكلموه فجاءهم سريعا وهو يظن أنه قد بداهم فيما يكلمهم فيه بداء . وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم .

فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الأباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت

الأحلام وفرقت الجماعة ، ثم عرضوا عليه أموالهم وجاههم وملكهم وطبهم .

فقال لهم : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

ردٌّ مفحِم فى موقف كان يرتج فيه على أى إنسان لم تكن له شخصية هذا الرسول الذى أمده الله بعونه ومكنه بما مكنه به من الحجة القاطعة والبرهان العظيم , إذ ما ظنك بشخص يرى خصومه أمامه وقد تسلحوا بكل شيء مادى من : مال وجاه وسلطان وجبروت وقوة . وهو وحده لا مال معه ولا سلاح ولا أنصار ، هو وحده يتحداهم بهذا البيان الرائع والجنان الثابت والحجة القوية ، إنها النبوة التى علا جلالها على كل شيء . ووهنت أمامها كل قوة فى الأرض .

ومن أمثلة الرد المسكت ما رد به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبى بن خلف ، وكان قد مشى إليه وفى يده عظم بالٍ قد ارفتَّ ، فقال : يا محمد . أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ، ثم فتَّه بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فقال : « نعم أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكون هكذا ثم يدخلك الله النار » .

وأنزل الله فى ذلك قوله تعالى فى آخر سورة يسن « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

كتب أبو سفيان رسالة تهديد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد بها أن يبلغ فى نفوس المسلمين مبلغ الإخافة والإرهاب ، جاء فى نهايتها فيما يذكره العقاد فى كتابه ـ « عبقرية محمد » ـ : نريد منك نصف نخل المدينة فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار :

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكتاب جاء فيه : « وصل كتابُ أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فو الله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام وأبشروا بضرب الحسام وبفلق الهام وخراب الديار وقلع الآثار » .

واحدة بواحدة والبادى أظلم . أراد أبو سفيان أن يخيف فأخيف وأن يُسكت فأُخرس .

فهذه أمثله من بداهته - صلى الله عليه وسلم - فى مجابهة المواقف التى لم يكن فيها عييا ولا حصيرا ، ولكنه كان قويا متمكنا . يرسل كلماته على سجيتها فتنساب فى قوة تقطع حجة خصمه وتدفع باطل عدوه كما يقول القرآن فى سورة الأنبياء : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

٥ - حسن الإيجاز وجوامع الكلم

قال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير . وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز .

وقول الآخر : البلاغة علم كثير فى قول يسير - وقد علل البلغاء لبلاغة الإيجاز بأن الكلام إذا طال عرضت للمتكلم أسباب التكلف ولا خير فى شىء يأتيك به التكلف .

وقد مر بنا فى مقدمة هذا البحث أن الإمام الغزالى وصف كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل ، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد ، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير .

كان بصفة عامة موجزا فى غير تقصير وأطول خطبة له - فيما عدا خطبة الوداع - لا تتعدى سطورًا تحصى ولا يستغرق إلقاؤها وقتا طويلا ، ومن أقواله التى رواها الرواة : « نصرت بالرعب وأعطيت جوامع الكلم » - كتاب « الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور » للمناوى جـ ٣ صـ ٥٧ .

والمقصود بجوامع الكلم كما يقول العلماء : الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بمعنى أنه لو أراد الشارح أن يشرح الجملة القصيرة منه جمع تحتها ألوانا من القصص والمعانى والأمثلة مختلفة الألوان ، ونستعرض فى ذلك مثالا . أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وذكره « صاحب الصناعتين » - قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : «كفى بالسلامة داء» .

تلقف هذا الحديث الجامع كثير من الأدباء والشعراء فصاغوا فى ظله كثيرا من أشعارهم ونثوراتهم ، فقال حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة   وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء
ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وإنما ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وإليه ينظر المثل الذى يقول : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص .

وقريب منه قول « محمد بن على » ـ رضى الله عنهما ـ : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك وتقربك من يومك.فأية أكلة ليس معها غصص وشربة ليس معها شرق فتأمل أمرك فكأنك قد صرت الحبيب المفقود .

لقد عبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كل هذه المعانى مجتمعة فى أقصر لفظ وأيسر عبارة وأجمع فكرة وتناولها بما لم يستطع « النمر بن تولب » فى الجاهلية أن يتناولها فى بيتين هما :

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة تفعل
يُرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحُمل

وهما على جمالها لم يحلقا كما حلقت عبارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات الكلمات الثلاث الخالية من التكرار والتى أدت من المعنى أكثر مما أداه بيتان جمعا من وسائل التعبير ما جمعا .

هذا ما حام حول هذا الحديث من تعبيرات الأدباء ، وهناك تعبيرات أخرى لم يسعف الجهد والخوف من الإطالة والوقت باستقصائها . فما بالك لو شرح .

إنه من غير شك يحتاج إلى كثير من الصفحات إلى جانب ضرورة توفر القريحة النافذة والثقافة الواسعة .

وانظر إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الضعيف أمير الركب » . فقد جمعت هذه العبارة على قصرها كل آداب السفر وما يتحتم على المسافر أن يفعله فى صحبة غيره ، وما يجب عليه من عطف على الضعيف الذى صوره الحديث فى صورة الأمير ، والأمير من شأنه أن يقول فيسمع وأن يأمر فيطاع ... إلى غير ذلك من المعانى .

ومن أمثلة إيجازه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون

عند الطمع » . فما أصدقها كلمة تقال لهؤلاء الذين بايعوه على الجهاد وآثروه وأصحابه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ونزل فيهم قوله تعالى فى سورة الحشر : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أما قوله : « يد الله مع الجماعة » فهو فى منتهى الإعجاز ، انظر إلى ما تضمنته هذه الحكمة الرائعة ذات الكلمات الأربع من مزايا الاتحاد والتضامن ، وما حذرت منه من تخاذل وتفرق ، وبينت كيف يظل الله المتعاونين بظله ويمدهم بالعون والتوفيق ، وانظر إلى المجاز المرسل الذى تؤديه كلمة « اليد » وهى تريد القوة والرحمة والمعونة والتوفيق وما يوحى به هذا المجاز من طرافة وجمال .

إن هذه العبارة لوشئت أن تجعلها عنوان مقال أوكتاب لجمعت فى فصوله من فنون القول وأفانين الكلام ما يعجز عن الوفاء بمضمون هذا العنوان .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

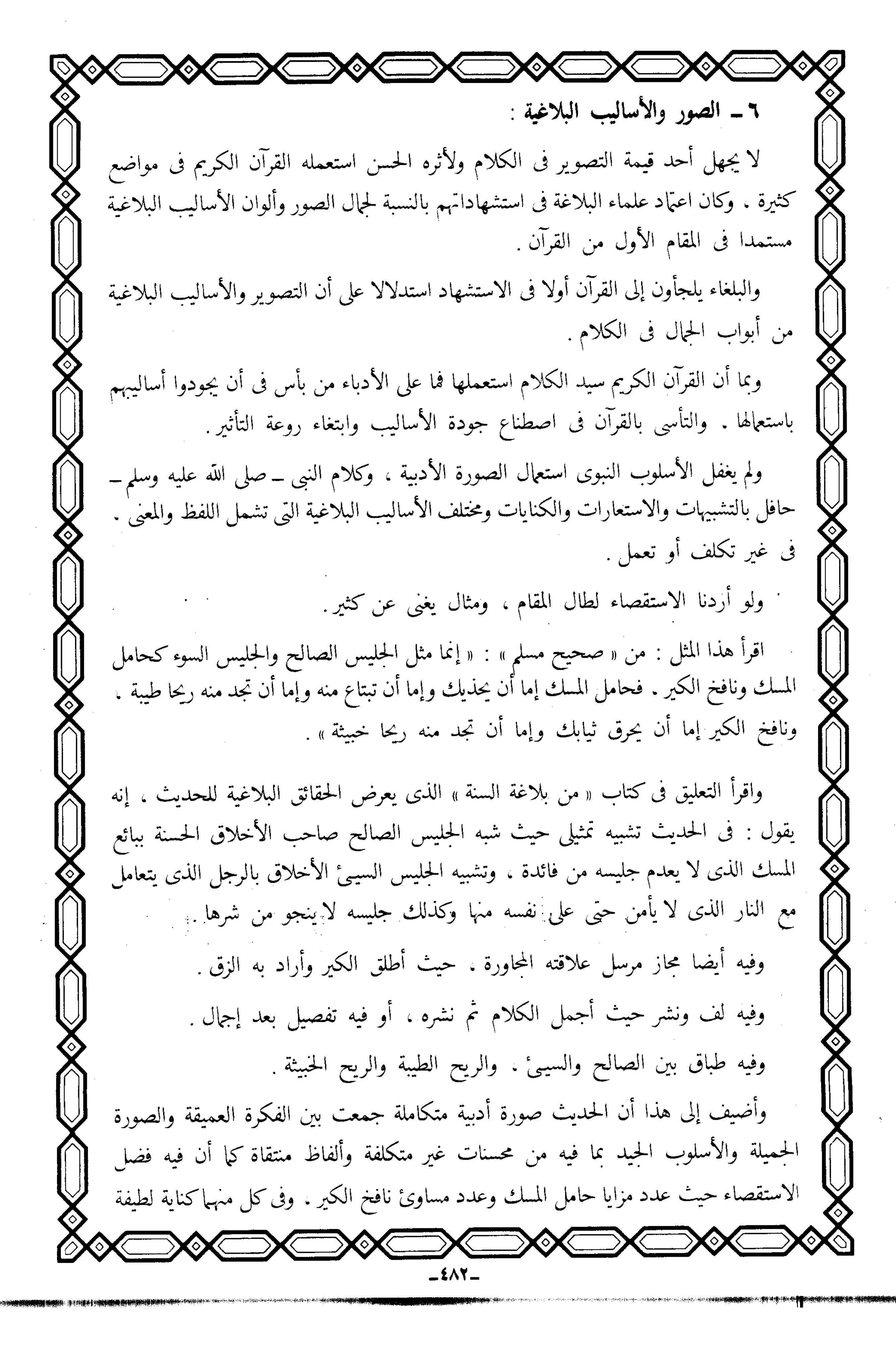
حول مفهوم حديث :

ولا يفوت فى هذا المقام الإشارة إلى حديث ذكره الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ورواه الأصمعى وابن الأعرابى عن رجالها وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنا معشر الأنبياء بكاء » ومعنى « البكء : القلة » . وهو يقصد قلة الكلام . وليست القلة من عجز ولكنها من قلة التكلف مصداقا لقوله تعالى فى سورة ص : « قل لا أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين » ومن الرغبة فى البعد عن الصنعة ومن شدة المحاسبة ، حتى يصير الصمت بالتمرين والتوطين عادة تناسب الطبيعة .

وقد علق الجاحظ عليه فى كتابه بما فيه غنية للمستزيد وقطع للمستريب فليرجع إليه من يريد . .

لقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإيجازه الجامع إلى ما تنبه له البلغاء بعده وذكره ابن رشيق فى « العمدة » بقوله : البلاغة إصابة المعنى وحسن الإيجاز .

وقال أبو الحسن الرمانى : أصل البلاغة الطبع ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها وتكون ميزانا لها وهى ثمانية أضرب أولها : الإيجاز .



٦ ـ الصور والأساليب البلاغية :

لا يجهل أحد قيمة التصوير فى الكلام ولأثره الحسن استعمله القرآن الكريم فى مواضع كثيرة . وكان اعتماد علماء البلاغة فى استشهاداتهم بالنسبة لجمال الصور وألوان الأساليب البلاغية مستمدا فى المقام الأول من القرآن .

والبلغاء يلجأون إلى القرآن أولا فى الاستشهاد استدلالا على أن التصوير والأساليب البلاغية من أبواب الجمال فى الكلام .

وبما أن القرآن الكريم سيد الكلام استعملها فما على الأدباء من بأس فى أن يجودوا أساليبهم باستعمالها . والتأسى بالقرآن فى اصطناع جودة الأساليب وابتغاء روعة التأثير .

ولم يغفل الأسلوب النبوى استعمال الصورة الأدبية ، وكلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حافل بالتشبيهات والاستعارات والكنايات ومختلف الأساليب البلاغية التى تشمل اللفظ والمعنى . فى غير تكلف أو تعمل .

ولو أردنا الاستقصاء لطال المقام ، ومثال يغنى عن كثير .

اقرأ هذا المثل : من « صحيح مسلم » : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

واقرأ التعليق فى كتاب « من بلاغة السنة » الذى يعرض الحقائق البلاغية للحديث ، إنه يقول : فى الحديث تشبيه تمثيلى حيث شبه الجليس الصالح صاحب الأخلاق الحسنة ببائع المسك الذى لا يعدم جليسه من فائدة ، وتشبيه الجليس السيئ الأخلاق بالرجل الذى يتعامل مع النار الذى لا يأمن حتى على نفسه منها وكذلك جليسه لا ينجو من شرها .

وفيه أيضا مجاز مرسل علاقته المجاورة . حيث أطلق الكير وأراد به الزق .

وفيه لف ونشر حيث أجمل الكلام ثم نشره ، أو فيه تفصيل بعد إجمال .

وفيه طباق بين الصالح والسيئ . والريح الطيبة والريح الخبيثة .

وأضيف إلى هذا أن الحديث صورة أدبية متكاملة جمعت بين الفكرة العميقة والصورة الجميلة والأسلوب الجيد بما فيه من محسنات غير متكلفة وألفاظ منتقاة كما أن فيه فضل الاستقصاء حيث عدد مزايا حامل المسك وعدد مساوئ نافخ الكير . وفى كل منهما كناية لطيفة

عن الصلاح والفساد ، والحديث مع ذلك من جوامع الكلم التى تحمل فى ألفاظها القليلة معانى جمة جليلة ، وفيه الإشارة إلى استحباب استعمال الرائحة الزكية التى ترغب فى إقبال الناس على صاحبها وإشاعة البهجة فى النفوس .

وانظر إلى جمال « التشبيهات والصور » فى العبارات التالية : « الصوم جُنَّة » ـ « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفى الماء النار » ـ « الكلمة الطيبة صدقة » ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ـ « جنة الرجل داره » ـ « مثل أبى بكر كالقطر أينما وقع نفع » ـ « مصارع الرجال تحت بروق الطمع » ـ « إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار » ـ « اليد العليا خير من اليد السفلى » ـ « جدع الحلال أنف الغيرة » .

إن سر جمال الصورة يكمن فى إصابتها الهدف وفى دقة الملاحظة وفى عدم تكلفها وفى إضافتها للمعنى وفى اتصالها بشعور قائلها ونبعها من صدق إحساسه ، وفى عدم غرابتها وفى جدتها وعدم تقليدها .

كل ذلك كان فى الصور التى نراها فى أسلوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعجز ، والتى تدل دلالة قاطعة على أن أسلوبه وصل إلى قمة عالية لا يمكن لإنسان كائن من كان أن يصل إليه . وحسبك أن كافة الأدباء والبلغاء ماعدا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدوا من يأخذ عليهم بعض أخطائهم فى إصابة التشبيه أو تقليدهم بعض الصور وعدم ابتكارها فإن لم يأخذوا عليهم خطأ فى التصوير لم يعدموا أن يجدوا لهم خطأ فى التعبير .

كلمات غير مسبوقة :

وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمات لم يسبقه إليها عربى ولم يشركه فيها عجمى ولم تدع لأحد ولا ادعاها أحد مما أصبحت أمثالا سائرة جمعت قمة البلاغة تصويرا وتعبيرا وإيجازا كما يقول الجاحظ فى « البيان والتبيين » جـ ٢ ص ـ ٢٧ . من ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا خيل الله اركبى » ـ « مات حتف أنفه » ـ « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كلما سمع هيعة طار إليها » ، « أكثروا من ذكر هادم اللذات » وقوله بعد أن زف فاطمة إلى زوجها على وأغلق دونهما الباب : « جدع الحلال أنف الغيرة » فهو من رائع التصوير والتخيل .

المحسنات البديعية :

وكان أسلوب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخلو من البديع غير المتكلف ، من جناس وسجع وطباق وغيره والأمثله على ذلك كثيرة فى كلامه ، وجماله يظهر فى أن ذلك يأتى عفوًا لخاطر معينا على المعنى مطرزًا للأسلوب من غير عنت ولا استكراه .

ومن أمثلته : « افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام »

وقوله : « إرجعن مأزورات غير مأجورات » ـ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » ـ « إياكم والمشارة فإنها تميت العزة وتحيى العرة » .

٧ ـ صدق الحديث :

جاء فى كتاب « عيون الأخبار » جـ ٢ صـ ١١٧ عن معاوية بن أبى سفيان قال : نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأغلوطات ، قال الأوزاعى : يعنى صعاب المسائل ، وعلق محقق الكتاب بأن هذا التفسير لا يتناسب مع الحديث بل المعنى أنها المسائل التى يغالط بها وهكذا فسرها الزمخشرى فى « الأساس » .

والأغاليط تتنافى مع الصدق الذى كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحلى به ويدعو إليه قولا وعملا ونية . والتزام الصدق غاية لا يدركها إلا أولو العزم من الرسل وسيدهم فى ذلك رسول الله . فقد كانت دعوته الصدق بعينه ، وأحاديثه كلها يتمثل فيها الصدق بأجلى معانيه حتى فيما يخبر عنه من حقائق تغيب عن أذهان الناس فى زمانه وما بعد زمانه ثم يسير الفلك دوراته وتتكشف الأيام عن صدق ما تحدث به ، لقد أخبر عما سيحدث وقد حدث .

أخرج أحمد عن عدى بن حاتم ... دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يا عدى أسلم تسلم ثلاثا » ، قال فقلت : إنى على دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك ... ألست من الركوسية ـ دين بين النصارى والصابئين ـ وأنت تأكل مرباع قومك » . قلت : بلى . قال : « هذا لا يحل لك فى دينك » .

قال : « أما إنى أعلم الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة » ؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها . قال : « فو الذى نفسى بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليفتحن الله كنوز كسرى بن هرمز » . قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟ . قال : « نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تأتى من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد قالها .

وقد تمت الثالثة فعلا فإنه فى عهد عمر بن عبد العزيز بحث عن مستحق الصدقة فلم يجد لأن الله قد أغنى الناس جميعا فصرف مال الزكاة فى التعمير والتحرير .

إنه الحديث المعجز الذى ينطق بالكلمة عن المستقبل فلا تلبث الأيام أن تصدقها . ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وصدق الحديث هذا من تمام الإعجاز فى البيان النبوى .. والأمثلة عليه كثيرة أكثر من أن تحصى وكتب السنة غاصة بها . وسأتجاوز أحاديث الإخبار عن المستقبل إلى لون آخر من الأحاديث الصادقة التى يصدقها مفهوم العصر الحديث .

أذكر منها هذا المثال وهو الحديث المشهور : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

أثبتت الأيام عبقرية صدق هذا الحديث . وأخبر العلم بأن استعمال السواك والمداومة عليه فيه منجاة من كثير من الأمراض التى تعترى الجسم عن طريق تسوس الأسنان وفساد اللثة وقذارة الفم .

ربما كانوا ينظرون إلى هذا الحديث على أنه من الأوامر المستحبة التى يمكن التجاوز عنها دون أن يكون هناك كبير خطر . ولكن بعد التوسع العلمى واكتشاف الأسباب المؤدية للعلل والأمراض ، وإمكان رؤية الجراثيم والميكروبات بواسطة المناظير المكبرة أمكن معرفة ما يعترى الأسنان من خلل . وأمكن فى ضوء ذلك اكتشاف ما فى شجر الأراك الذى يؤخذ منه المسواك من مواد طاردة لهذه الجراثيم وقاضية عليها . واكتشاف الأهوال المترتبة على مرض الأسنان وراء هذه المصانع التى تنتج مئات الأنواع من معجون الأسنان ووسائل التنظيف . ومازالت هذه الأنواع والوسائل عاجزة عن اللحاق بما فى هذا العود الصغير البدائى المأخوذ من شجرة الأراك .

وربما ظن بعض الناس أن قول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى شأن السواك ليس من قبيل الإعجاز ولكنه كلام إنسان حاذق فطن يدعو إلى النظافة . فليكن كذلك . ولكن لابد أن يلاحظ الظان تلك البيئة البدائية التى كان يعيش فيها الرسول وكيف أن هذا السواك الذى دعا إلى استعماله فيها لم يفقد فعاليته بعد مرور أربعة عشر قرنا من الزمان . وفى بيئات عرفت فيها تلك

الأدوية والمطهرات والوسائل الحديثة والمعقمة .

ولكن ما قول هذا الظان وغيره حين يسمع قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحدث عن أحدث التخصصات العلمية الحديثة فى أحاديث متفرقة : كالحديث الذى يفرق بين دم الحيض والاستحاضة ، وأن الدم الأول يمنع الصلاة . والثانى لا يمنعها . وكغيره من الأحاديث التى استعرضها العلماء بالشرح والتفصيل وأثبتوا من خلالها الصدق العلمى فى أخبار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ وارجع فى ذلك إذا شئت إلى كتاب « الرسول » لسعيد حواء،فقد استعرض طائفة من هذه الأحاديث المعجزة ، وغيره من الكتب .

إن كثيرا من الحكماء والعلماء قالوا كلمات تعجب الناس من جمالها فى فترة من فترات التاريخ ثم لم تلبث أن أصيبت هذه الكلمات بالفتور ثم الاندثار ، لأنها لم تستطع مقاومة ما يجد من أحداث ولأنها لم تكن مستشفة من ضمير الغيب الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وهكذا كان حديث الذى لا ينطق عن الهوى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٨ ـ صعوبة التقليد :

عنى المسلمون منذ فجر التاريخ الإسلامى بمعرفة أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروايتها ، لأن السنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا إلى حفظ كلامه وروايته وفى ذلك يقول : « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه وحامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد بدأ تدوين السنة كعمل فردى مبكرا ولم يصبح جماعيا إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ ، والذى دفعه إلى ذلك اجتراء بعض الناس على اختلاق بعض الأحاديث لإبطال حجة خصومهم أو اكتساب تأييد العامة أو غير ذلك ، ولكن الله وفق علماء المسلمين إلى تنقية السنة مما أضيف إليها وتجردوا لبيان الصحيح والموضوع من الحديث . ووضعوا فى ذلك الضوابط الجامعة المانعة التى تضمن صحة الحديث وضبطه .

نجح علماء السنة فى تنقية الحديث أكثر مما نجح علماء الأدب فى تنقية الشعر العربى من الخطأ أو الإضافة أو النسبة حتى قال المفضل الضبى : لقد سلط الله على الشعر من حماد الراوية ما أفسده حتى لا يصلح أبدا .

والسبب فى حفظ السنة أنها تعد الموضحة للقرآن المفصلة له ، وقد تعهد الله بحفظ القرآن . وفى حفظ القرآن حفظ للسنة . وفى حفظ السنة حفظ للقرآن . وحفظ السنة إعجاز ما بعده إعجاز .

وهناك سبب آخر هو صعوبة التقليد ، ذلك أن بيان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسيج وحده لا يمكن لغيره أن يصنع مثله لأن فيه حلاوة روح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسناء نوره ، وتلك مزية لا يشاركه أحد فيها . والكلمة تنم عن روح قائلها وتترجم عن فؤاد صاحبها . ولا يحكم على جنان إنسان مهما كان بالحكم على جنان إنسان أسرى به وعرج به إلى السموات العلا حيث علت قدمه على كل قدم ورأت عيناه ما لم يطمح لرؤيته بصر بل تجاوز مقاما عز على مقامات الأنبياء المكرمين والملائكة المقربين .

فلابد أن يكون ترجمان هذا الجنان من المعانى والأسرار والألفاظ فوق بيان كل بيان ماعدا القرآن الكريم الذى نزل على قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولقد تنبه لهذه المنزلة الشريفة كثير من العلماء الأجلاء . وذكر الجاحظ أن تقليد كلام الرسول صعب المنال . وقال فى ذلك : « وللسلف الطيب حكم وخطب كثيرة صحيحة ومدخولة لا يخفى شأنها على نقاد الألفاظ وجهابذة المعانى متميزة عند الرواة الخلص ، وما بلغنا عن أحد من جميع الناس أن أحدا ولّد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة واحدة » .

لقد أدرك المولد لو سولت له نفسه ذلك أنه يعرض نفسه لمرتقى صعب يفتضح دون الوصول إليه . إذ كيف له بالتسديد التام والصواب الكامل . والعصمة الفاضلة والتأييد الكامل والكلمة الجامعة والصدق الشامل ، وتلك مقومات بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

موضوعات بيانه :

أجاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القول فى كل فن من فنون القول . فتناول الخطب والوصايا والرسائل والمواعظ والحكم والمعاهدات والأدعية ، وله فى كل منها آثار رائعة معجزة . وقد مرت منها ألوان فيما مضى . فن واحد لم يتناوله ، هو فن الشعر ، لقد صرفه الله عنه قولا . وإن كان على علم به .

وقال الله فى حقه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » . وعدم قوله الشعر غير قادح فى ملكته وقدرته البلاغية وإعجازه فى الفنون الأخرى .

فقد حال الله بينه وبين الشعر لحكمة بالغة . لأنه لو انصرف إليه لبلغ القمة فيه ولو برز فيه لسار فى نهج الشعراء فى أغراضهم المختلفة . ولو قال الشعر لصدق من وصفه من المعارضين بأنه شاعر وأن القرآن لون من الشعر ولا ستطاع هؤلاء المعارضون أن يسندوا هذا التأثير الذى بلغه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفوس الناس إلى ما يقوله من الشعر ، فى بيئة عرفت للشاعر حقه ومنزلته ، وبلغ الشعر فى نفوسهم منزلة رفيعة . وكم رفع بيت من الشعر مجد قبيلة وخفض أخرى . وكم أشعل نار حرب وأجج عداوة وأحيا ثأرا ، وعلى الرغم من ارتفاع الشاعر فى نظر الناس إلا أن بعضهم كان ينظر إليه على أنه منافق ينمق الكلام ويزخرفه ولا يقوله عن عقيدة أو صدق .

وقد وصف القرآن الشعراء أصدق وصف فقال : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين أمنوا ... » ـ سورة الشعراء ـ .

من أجل ذلك صرف الله نبيه عن قول الشعر . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان على علم به ويستمع إليه ويستشهد به أحيانا ولكنه لا يتم البيت الذى يستشهد به وإن أتمه عدل به عن وزنه .. والأمثلة على ذلك كثيرة فى سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

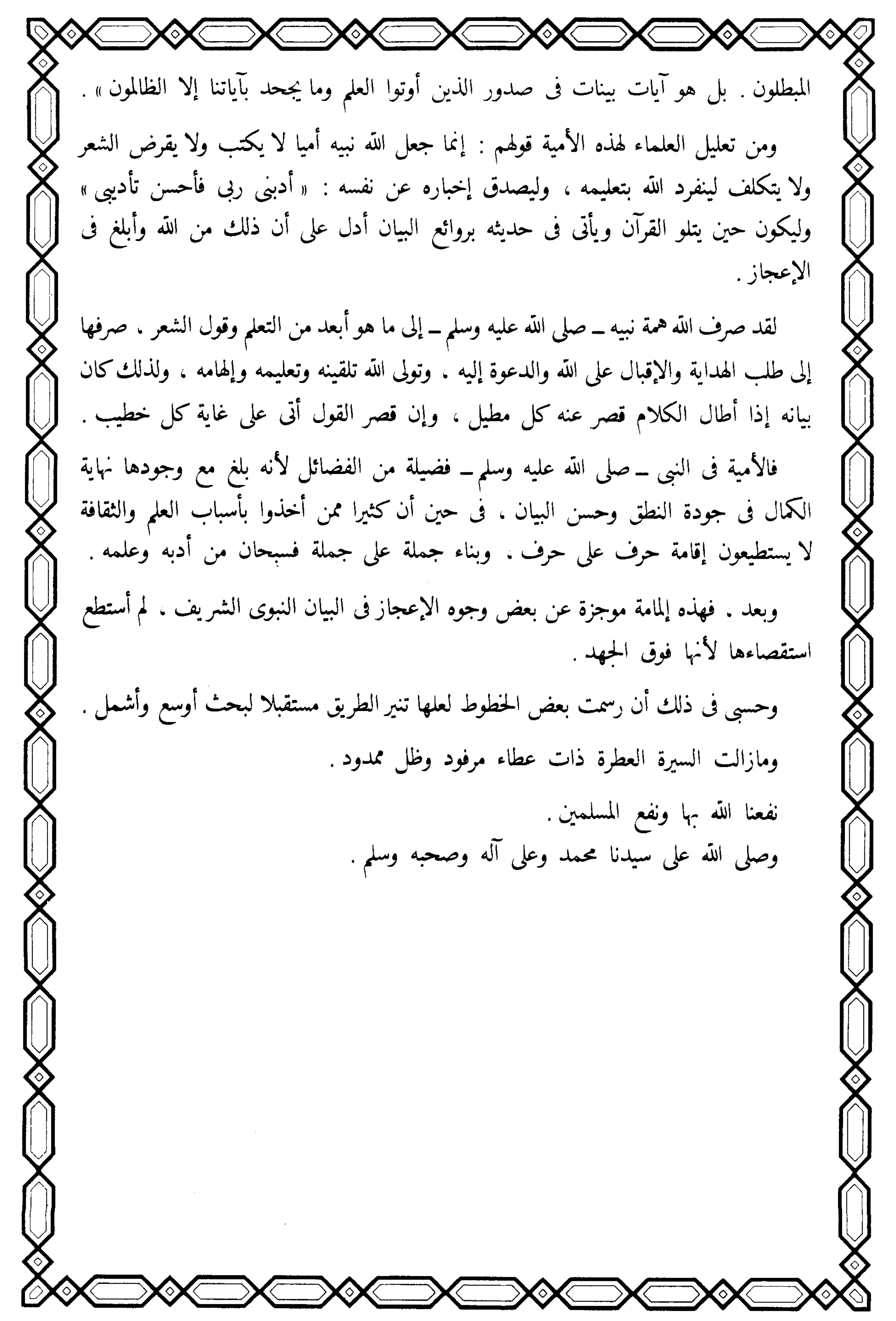
وللدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ تعليل آخر لذلك ذكره فى مقال له « بمجلة الأزهر » ذو الحجة ١٣٩٦ هـ فحواه : « أن هناك مستويات من الإنسانية هى فى سموها ترتفع عن مستوى الشعر ، ومن هذه المستويات مستوى الرسل ، ولعل مستوى الصديقية فى قمته لا يناسب أيضا مستوى الشعر . ولم يكن أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ وهو قمة الصديقين شاعرا » .

أقول : وقد سار على هذا الدرب بعض العلماء الذين تهيأ لهم قول الشعر فصرفوا أنفسهم تأدبا عنه فقال أحدهم :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أشعر من لبيد

هذا ولا يفوتنا الإشارة إلى أمية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد بلغ ما بلغ من علو فى القول وإعجاز فى البيان على الرغم من هذه الأمية ، وربما كان مرد هذا الإعجاز إلى هذه الأمية .

وقد علل بعضهم لحكمة الله فى اختيار نبيه أميا ولا أبلغ من تعليل القرآن لذلك فى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لا رتاب



المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

ومن تعليل العلماء لهذه الأمية قولهم : إنما جعل الله نبيه أميا لا يكتب ولا يقرض الشعر ولا يتكلف لينفرد الله بتعليمه ، وليصدق إخباره عن نفسه : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وليكون حين يتلو القرآن ويأتى فى حديثه بروائع البيان أدل على أن ذلك من الله وأبلغ فى الإعجاز .

لقد صرف الله همة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما هو أبعد من التعلم وقول الشعر . صرفها إلى طلب الهداية والإقبال على الله والدعوة إليه . وتولى الله تلقينه وتعليمه وإلهامه ، ولذلك كان بيانه إذا أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب .

فالأمية فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضيلة من الفضائل لأنه بلغ مع وجودها نهاية الكمال فى جودة النطق وحسن البيان ، فى حين أن كثيرا ممن أخذوا بأسباب العلم والثقافة لا يستطيعون إقامة حرف على حرف . وبناء جملة على جملة فسبحان من أدبه وعلمه .

وبعد . فهذه إلمامة موجزة عن بعض وجوه الإعجاز فى البيان النبوى الشريف . لم أستطع استقصاءها لأنها فوق الجهد .

وحسبى فى ذلك أن رسمت بعض الخطوط لعلها تنير الطريق مستقبلا لبحث أوسع وأشمل .

ومازالت السيرة العطرة ذات عطاء مرفود وظل ممدود .

نفعنا الله بها ونفع المسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .